رحلة إلى الواقع على متن الخيال
محاولة تجريبية لكتابة نص ذاتي "خاطرة"

إعداد: محمد زياد توبة

بدأ أعضاء منتدى معلمي طولكرم رحلة عملهم الإبداعي بمجموعة من الأعمال الثقافية التي أذكوها بكل ما يملكون من عزم وهمة، مصرِّين على إظهار المنتدى بشكل حسن في محافظة طولكرم.

فالإنسان يجب أن لا يبدأ من نقطة الصفر؛ لأن كل بداية تبدأ من شيء يسبقها، وبداية تجربتنا تشكلت من خبرة أناس شكلت المعبر الأول لفهم الناس وأهدافهم وتطويرها، فمن منطلق المحافظة على كيان المنتدى في بداياته الأولى، جاءت مجموعة من الأفكار المتتالية في بث رسالة المنتدى عبر العديد من الأعمال التي قام بها أعضاء المنتدى، التي تمثلت في دعوة العديد من الكتاب والنقاد والقراء أمثال الكاتب والناقد صبحي شحروري، والشاعر عبد الناصر صالح، وإبراز مجموعة من الشعراء الذين عرضوا أعمالهم، وخرجوا من فضاء العزلة والانطواء إلى فضاء الوجود الواقعي، حيث كان الفضل الكبير لمنتدى معلمي اللغة العربية (سابقاً)، منتدى معلمي طولكرم الثقافي التربوي (حالياً) في التواصل مع تلك الوجوه الثقافية في ساحة النقد الإبداعي الثقافي، ولا ننسى الدور الكبير البارز الذي قدمه مركز القطان للبحث التطوير التربوي في رعاية هذه النشاطات وتوجيهها، ولذلك لا يسعنا إلا أن نتقدم منه بشكرنا العميق.

وها هو المنتدى بدأ يخطو خطوته الثانية على عتبات المرحلة الإبداعية في إظهار مواهب فئة الطلبة المبدعين من صفوف الأول الثانوي والعاشر والتاسع، وصقلها بما يتناسب مع واقع تجارب المعلمين، حيث كانت التجربة الأولى مع طلبة الصف العاشر والأول الثانوي والتاسع بعقد ورشة ثقافية، تم فيها عرض العديد من الأفكار والتعمق في خبايا الكلمات وأسرارها، حيث بدأ النقاش بوضع قلم أمام الطلبة والسؤال عن كيفية تحويل هذا القلم إلى واقع فكري من خلال عنونة تشخص هذا القلم، وقد طرح الطلاب العديد من العناوين البارزة/ منها: صرخة قلم، وشجاعة قلم، وقلم الحقيقة، وتمت مناقشة هذه العناوين وإبراز التشخيص والتجسيد فيها، وبهذه الخطوة أصبحت لدى بعضهم تصورات عما سيكون في هذا اللقاء.

لقد شعر الطلاب بروح تعانق أنفاسهم عندما بدأوا بالتحليل الخيالي والفلسفي لهذه العناوين، وبعد ذلك انتقلنا إلى مرحلة أعمق، حيث طرحت بين أيديهم وعلى مسامعهم العديد من النصوص الذاتية والخواطر التي تمت مناقشتها بطريقة سيميائية فكرية والاستماع إلى تعليق الطلبة الذين لم يخفوا انسجامهم مع الكلمات الغامضة التي أظهرت جانباً عملياً من التحليل والتأمل العميق لدى بعضهم، وقد تم العمل على إفساح المجال للمناقشة والحوار البناء الذي دفع البعض إلى الانقياد الطوعي وراء الشعور الحسي واللاحسي في واقع الحدث. بعد ذلك تمت قراءة بعض الخواطر والنصوص التي نقلتهم من الواقع المحسوس إلى الواقع الخيالي، وأصبح همهم الأول متمثلاً في البحث عن عنونة فكرية وقراءة سيميائية لما تمت قراءته من قبل المعلم ومن قبل بعضهم، وبعد أن اتضحت ملامح الخاطرة في مفهومها العام، عدنا إلى الجانب المعرفي التقليدي، وهو تعريف الخاطرة والأركان الأساسية التي تقوم عليها الخاطرة، بناء على المناقشة التي جرت.

وكانت المفاجأة بعد ذلك بأن قدمت ورقة عمل للطلبة، حيث كانت المفتاح الثاني الذي أسهم في تجسيد الفكرة في أذهانهم وهو إعطاء خاطرة مجتزأة ونصها يقول:

لقد فاتني أن أبحث في ثنايا . . . الغابر الذي لا يزال يجيش . . . الصامتة الباحثة عن شماعة الأمل المبتور، لكي يعلق عثراته . . . عليها، ويمحو ما في الذاكرة من صور باتت تجرجر . . . المنثورة على جدران . . .

وطلب منهم أن يكملوها بلغتهم الشخصية. ومن الطبيعي أن ما وضع من الكلمات كان يتناسب مع النص بكليته، وكانت النتيجة: الليل . . . بالتعابير . . . البالية . . . أشلاءها . . . الماضي.

وتم إفساح المجال للخوض في الأسباب الفكرية التي دعت البعض في اختيار مثل هذه الكلمات المكملة للنص، حيث كانت الإجابة: اخترت الليل لأن الثنايا تحمل في طياتها السواد والظلمة. واخترت التعابير لأن الجيشان هو مقدمة للبكاء، فالتعابير هي مقدمة لحال الإنسان من وقت إلى آخر، وتكون بالصمت لا الإفصاح بشكل

مباشر عما يجول في نفسه، واخترت الأشلاء باعتبارها أنها تجر إذا أصيبت وتهشمت.

وبعد مناقشة تناولت كيف أن النص قاد تفكيرنا وأن السياق قد حكمنا باختيار كلمات محددة، توصلنا إلى أن اللغة أحياناً تتكلم عبرنا بدلاً من أن نتكلم عبرها نحن، ما يجعل النص تعبيراً عن اللغة وبنيتها، وهذا ليس أدباً لأنه ليس كلاماً فردياً ذاتياً، ولا يعبر عن الشخص وإحساساته بقدر ما يعبر عن اللغة وبنيتها والخطاب المهيمن فيها وعليها.

واستكمالاً لذلك، بدأ الطلاب بالتطبيق العملي المباشر في كتابة خاطرة متكاملة حيث قدمت لهم بعض الجمل التالية:

1. صرخت بالصمت المجهول من أعماق مجهولة.
2. لم تكترث لموج البحر المصقول بهمسات النسيم.
3. لم أستطع أن أخط أفق المدى البعيد بألوان الطيف.
4. حياتنا لا تتوقف عند نقطة الصفر الأخير.
5. عانقتني ذكريات المستقبل.

وقاموا بالكتابة التي انسجمت وواقع الأحداث التي دارت أثناء الحوار الفكري، حيث كتبوا:

صرخة ورق

في رحلتي الأسبوعية إلى ما بعد الخيال رأيت بناءً يشع ويضيء كاد يغرق بالضوء الباهت. دعاني المنظر لأدخل وأتفحص الجوهر، طرقت الباب الحديدي الضخم سهل الفتح، وانتظرت الجواب، ولكن لا إجابة ولا مجيب، فتحت الباب ودخلت وصرخت وناديت: يا أهل هذا البيت! هل من أحد هناك؟

وفجأةً، سمعت صوت عجوز هرم يقول لي تفضل هنا، الإجابة والجواب هنا، المفتاح لكل باب. سيطرت علي مشاعر الخوف والقلق، فليس هناك من يتفوه بهذه الكلمات التي تخرج كالدواء للداء، ولكن لم يكن هناك إلا رف يمتلئ بالكتب، اقتربت منها ولمستها واطمأنت نفسي للمسها، وبدأ يشرح لي همه، يشرح لي مأساة مئات السنوات، يشرح لي هم المرض والتعب؛ مرض الزكام لكثرة الغبار عليه، وتعب عظامه، فهو لم يتحرك منذ القرون الأولى. فقلت له: لا تحزن، فالناس أصبحوا مملوكين للإنترنت وبرامج التلفاز السخيفة والدنيئة، فيشرع بهمة، والدموع تسيل من عينيه، وبدأ صوته يطربني بالهم الذي يعيش به، ويتعب أكثر فأكثر، وكلما أقول له توقف عن البكاء يقول لي لا تتركني، وسأقدم لك كنزاً، وفعلاً جلست إلى جواره، وبدأ يحكي لي قصصه، قصصاً يعرفها وقصصاً مر بها، وأخرى عنه وعن عصره، وتدافعت الكتب الأخرى، وأحسست بالسعادة، وبدأت أصرخ: يا الهي! كم هي جميلة قصصكم! وكم هي حكيمة! هيا معي لنذهب إلى الشوارع لأيقاظ الناس وتحريرهم من حالة الضياع وخرجنا وبدأنا بالصراخ.

مصطفى وليد أبو التين
فريق ملتقى المبدعين- المركز الثقافي لتنمية الطفل/ طولكرم

صرخة صمت

صرخت بالصمت المجهول من أعماق مجهولة، قد تكون الأعماق مظلمة أكثر من صميم ذلك البحر الأسود المصقول بموج يهتز مع همسات النسيم، لكن القدر الذي خط على مدى أفقي بألوان الطيف العابس الذي ألقى معطفه البارد البالي على صميمي بنوع من الغروب الأرجواني، وفي لحظات صامتة قرأت الحياة بأكثر من وجه، بل بكل لغاتها التي مشيت بين ثناياها إلى أن أصبحت أشلائي ممزقة، تعانق ذكريات مستقبلي المجهول في الحاضر والماضي، وقد كدت أن أغرق في بحور عميقة لولا أن انتشلتني من بين يديها يد عارية قد جرد الزمن عنها ثياب الأمل! لم أفهم لماذا قامت بذلك، سئمت من كوني أعيش في هذه الدوامة المغلقة في قلوب بغيضة، بل وسئمت من كوني طريحة بؤس الآخرين، وقتيلة أشواك الدروب الصامتة. وقالت لي الحياة هناك وأشارت فنظرت وقلت كيف أصل؟ فقالت: شق طريقك، فحركت ساقي ورفعت قدمي وطبعت أول خطواتي.

سيما عبد الرحيم أبو شمعة
فريق ملتقى المبدعين – المركز الثقافي لتنمية الطفل/ طولكرم

جزيرة الصمت

حملت القلم لأخط أفقاً للمدى بعد أن لملمت أجزائي المتساقطة إثر غيمة ضبابية حملت بين أحزانها حبيبات من مطر أسود حرقت الملايين من الورد الأحمر في طريقها الطويل، لقد علمتني أن ألحظ العالم بعين ثاقبة، وأغوص في عالم الغموض الدامس، حيث وجدت نفسي كإنسان تائه يسبح في فضاء جزيرة صفراء قاحلة ليلتقط أنفاسه الأخيرة دون الرجوع إلى الماضي المحاط بغبار اليأس الذي لا ينتهي، وفجأة رأيت زهرة تنبت بين الصخور!

محمود أحمد السرغلي
فريق ملتقى المميزين – المركز الثقافي لتنمية الطفل/ طولكرم

إعداد: محمد زياد توبة
منتدى معلمي طولكرم الثقافي التربوي
مدرسة ذكور ارتاح الثانوية